٤٦٧٧

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة

تراثنا

الشَـوَاويـة

من أهـل عُمان الشمالية
"مجتمع رعى في طريق النفير"

بقلم: ج . س . بيركس

نوفمبر ١٩٨٢

سلطنة عمان
وزارة التعليم القومي
المكتبة
الرقم العام : ٧٥٦
الرقم الخاص :

بسم الله الرحمن الرحيم

الشواوية من أهل عمان الشمالية

« مجتمع رعى فى طريق التغـــير »

بقلم ج • س • بيركس

سلطنة عُمان بلاد يغلب عليها الطابع الريفى ، فما يزيد على ٨٥ ٪ من سكانها يعيشـــون خارج المدن والغالبية العظمى من هؤلاء السكان الريفيين يعيشون فى مستوطنات أو حواضر تتراوح عددا بين ٢٥ ساكناً الى ما قد يزيد على ٨٠٠٠ ويعيش حوالى ١١ ٪ من السكان الريفيين فى مساكن متفرقة خـــارج القرى أو فى ضياع صغيرة من ٢٥ ساكنا أو أقل (١) • وبعضهم فلاحون يفلحون بساتين منعزلة واقعة حيث مستوى الماء الجوفى قريب الغور وكمية الماء كافية للرى بالآبار والمضخات • والأسر الأخرى التى تعيش فى مساكن متفرقة لا يعتبرون الفلاحـــة حرفتهم الرئيسية وان ملكوا نخيلا وبساتين ، وهـــؤلاء هم الشواوية •

هؤلاء الشواوية يشكلون قطاع الرعاة من المجتمع العمانى (الى جانب البدو الذين يعيشون على اطراف الربع الخالى) وهم يعيشون خارج القرى ، رغم أنهم ذوو صلة قوية بها ،

وذلك كيلا تفسد الغنم والماعز ، التى تعوّدوا أن يستمدوا منها معظم رزقهم ، محصلات أهل القرى • وتعيش كل أسرة من أسر الشواوية فى ديار مؤقتة (تسمى فرقان ومفردها فريق) ، يتنقلون بينها تنقلا شبه منتظم •

شواوية الجبال

فى الجبال نجد حياة الشواوية أكثر التصاقا بالتقاليد ، وفى الجبال أيضا نجد الشواوية يشكلون أكبر نسبة عددية إذ يبلغون ٥٥ ٪ من السكان (٢) • وقد كان لبعد سكان الجبال هؤلاء وقلة القرى الكبيرة بينهم — التى تعتبر فى عمان مراكز التغيير والتجديد — أثر فى إعاقة تطور المجتمع تطورا سريعا كالذى حدث فى المناطق السهلة التى يتيسر الوصول اليها •

والفرقان فى الجبال تقع عادة عند ماء جار على سطح الأرض أو آبار قليلة الغور يكثر وجودها ، ولذا فالسكان مفرقون تفريقا واسعا ، مما يسمح بالانتفاع بالمرعى انتفاعا واسعا كذلك • وتختلف طبيعة مواقع الفرقان اختلافا كبيرا ، فكثير من الشواوية لا يزيدون على أن يعيشوا تحت الأشجار على مدارج فى الجبال أو بطون الوديان ، ويعيش غيرهم فى

الكهوف ، وقد يعيش آخرون منهم فى بيوت من حجر • والغالبية العظمى من الاسر تنقل موقع سكناها مرة كل فصل على الأقل ، ولكنهم فى العادة لا يبعدون كثيرا فلا تزيد مسافة انتقالهم أكثر من كيلو مترين ، ويشرب ما يزيد عـلى ٧٠ ٪ من الأسر من مورد ماء واحـد على مدار السنة (٣) •

ومن المهم أن ندرك ان هذه التنقلات او النجعات لا تشكل نموذجا من انتقـال الرعاة بين الجبال والتلال ، أى الأراضى المنخفضة • فهى تنقلات لا تجرى فى الدرجة الأولى من أجـل فائدة الماشية نفسها بل إرضاء لحاجات السكان من البشر • فمن العوامل المألوفة وراء تغيير موقع البيت تبعا للفصول فى الجبال الصعود الى مكانٍ عالٍ فى الجبل حيث يهب نسيم الصيف أو هربا من الحيات والزنابير • ومن الأسباب المهمة أيضا فى التنقـلات الدورية رغبتهـم فى اسـترضاء الجن حسـب معتقداتهم (٤) ، وقلّ أن يكون تغيير موقع الفريق من أجل أن ترعى الماشية فى مراعى جديدة •

ويبلغ معدل ما تملك الاسرة الشواوية فى الجبال حـوالى ستين رأسا من الاغنام والماعز • ورغم ان كل بيت يقتنى عددا قليلا من الاغنام الا ان الماعز غالب بينهم فقد تبين من تعداد حيوانات فرقان المناطق العالية أن ما يزيد على ٨٠٪ منها كان

ماعزاً • وهم يرون أن الأغنام ليست سريعة الحركة وليست من القوة بحيث تحتمل الحياة فى الجبال •

ويكاد نصف أسر الشواوية أن تملك كل واحدة منها بين ٥٠ و ٣٠٠ رأسا من الماعز ، وهـو عدد يكفى ليقـوم بأود أسرة من الرعاة • ولم يكن بين ١٣٤ أسرة إلا أربع أسر لم تكن تقتنى ماعزا وأغناما • ولا يقتنون الجمال إلا قليلا ومعدلها يقل عن جمل واحد لكل فريق • وقد نقص عدد الجمال نقصا ملحوظا فى السنوات الخمس الأخيرة ، منذ انتشار استعمال سيارات اللاندروفر • ولم نلق إلا أسرة شواوية واحدة تقتنى بقرة •

وإذا قيس شواوية الجبال بمجتمعات رعاة أخرى ، وإذا استحضرنا فى الذهن ثروتهم من الحيوانات الصغيرة فى الجبال ، وجـدنا أنهم لا يبذلون إلا جهـدا ضئيلا نسبيا فى العنايـة بماشيتهم (*) فإذا ما سقوا المـاعز المـاء وحلبوها وغدوا بها فى الصباح خارج أرض المضرب أو المخيم تركوها تطلب مرعاها بنفسها طيلة اليوم • وعنـد غسـق الليل يطعمونها بأيديهم فيعطونها عادة بعض التمر • ولذا فالقطعان تبقى معظم الوقت هملا سائبة فى المرعى بلا راعٍ • والعمل الأسـاسى للراعى ، إن وجـد ، هو أن يمنع المـاعز أن تدخل أرضا قريبة مزروعة • ولذا فقد يغلب أن لا يعرف رب الأسرة مكان بعض المـاشية

الضالة أو الشاردة وقد يبلغ ذلك ٢٠ ٪ من مجموع القطيع الذى يملكه .

وقد ينتج عن مثل هذا الشرور هلاك فى الماعز . وأسباب هلاكها بنسبة تنازلية ، هى : الضبع والثعلب (وكذلك النمر) ، والسقوط من شاهق وأكل القفص (وهو نبات سام لم يحدد نوعه علميا) . ورغم أنه يصعب تحديد نسبة عامة لما يهلك منها ، الا أنه تبين أن الخسارة ، ما عدا موت السخول بعد الولادة مباشرة ، تبلغ حوالى ١٢ ٪ سنويا بين ١٦ فريقا عند حصر ما لديهم من ماشية . وقد تعدو الخسارة فى السخول عند الولادة ومن الاسقاط الى نسبة ٦٠ ٪ سنويا . ولذا فالمعدلات العامة للهلاك فى بعض قطعان الجبال ضخمة [٦] . وهناك ما يدل على أن العناية وحسن التدبير قد ينقصان هذه المعدلات .

وجمعنا أيضا معلومات عن عدد القطعان التى تباع وتذبح ، ولكن هذه المعلومات أقل دقة وذلك أن أرباب الأسر الشواوية ، وإن رأوا أهمية السؤال عن الهلاك وأسبابه ، ارتابوا فى استدراج المعلومات عن البيع والذبح . يزاد على ذلك أن مما ينبغى التنبيه عليه هو أن عدد الماعز الذى يباع يتباين تباينا كبيراً فى فترات قصيرة حسب أحوال المرعى وحسب الاستجابة

وزارة الثقافة القومي
المكتبة
الرقم العام : ٧٥٦
الرقم الخاص :

للأسعار المعروضة • فالفرقان الثلاثة والعشرون التى وردت باجابات مقنعة كانت تملك ما معدّله ٧٦ رأسا وكانت تبيع أو تذبح ١٣ ٪ سنويا •

ولكن شواوية الجبال لا يعتمدون اعتمادا تاما على قطعانهم ، ومن المشكوك فيه أن أحدهم فعل ذلك قط • فما يزيد على ٨٠ ٪ من الفرقان يملكون نخيلا ، ورغم أن النخيل لم يكن يعطى الأسر من الثمر ما يكفيهم إلافى ١٣ ٪ من الحالات ، إلا أن النخيل ركن مهم فى معاشهم فمنه قوت للناس وعلف للماشية • ويغلب أن يكون نخيلهم فى حيل لا فى قرية كبيرة • والحيل (وجمعه حيول) نبع ماء أو نزاز ماء صغير ، يكثر أمثاله فى الجبال ، يستعمل لرى نخلات قليلة وربما استعمل أيضا لرى بعض الغلات الزراعية الفصلية • وليس عند مثل هذا الحيل بيوت ثابتة عادة ، وقليل من سكان القرى من يملك نخيلا هناك •وتملّك الشواوية النخيل فى الحيول له مزية أن النخيل يكون قريبا من المراعى ، ولكن البساتين تبقى دون حراسة فتتلف المحاصيل بفعل الماعز والزنابير والجرذان والطيور • ولما كان كثير من النخيل ، على كل حال ، لا يعطى إلا ثمرا قليلا وذلك لطول عمره وقلة سماده وإضرار الرياح والشمس به [٨] فان تملّك عدد كبير منه لا يعنى ضرورة انه يأتى من الثمر بما يكفى •

وبعض الأسر ، وقد تكون نسبتها الربع — وإن تفاوت الأمر تفاوتا شاسعا بين القبائل — تملك نخيلا فى القرى الكبيرة على أطراف الجبال وفى الوديان الكبرى • وهم عادة لا يقومون على رى هذه البساتين وتعهدها بأنفسهم — بل يتركون ذلك لبعض أهل القرى أو البيادير (مفردها بيدار) على نصيب من الغلة وعلى أجر يدفع نقدا — وهو أمر يتزايد العمل به ، ومن الشائع بين هؤلاء البيادير أن يتقاعسوا عن واجباتهم فيهملوا نخيل الشواوية فتكون غلتها أقل مما كان يرجى منها •

ولذا ، ورغم أن الشواوية يملكون نخيلا ، إلا ان معظمهم يحتاج لشراء كميات كبيرة من التمر • وقد زعمت بعض الأسر التى سألناها أنهم أنفقوا فوق ٢٠٠ ريال على التمر فى العام السابق ، وأنفق معظمهم فوق ٨٠ ريالا •ورغم أن هذه المعلومات ينبغى التحرز فى قبولها الا أنها هامة ، فهى تدل على قيام معاملات كبرى بالنقد بين سكان الجبال وسكان القرى الكبرى التى فيها فائض من محصول التمر [٩] • وهذا يعنى أن نظام حياة الرعى الجبلية لا يمكن اعتبارها نظاما معاشيا اقتصاديا مغلقا على نفسه ولم يكن كذلك أمداً طويلاً من الدهر • ومشتريات التمر دائما مستمرة •

ولا يمكن دفع قيمتها من مبيعات ماشيتهم وحدها ، ولكن شواوية الجبال كان لهم دوما مصادر رزق أخرى : فبيع منتجات الألبان ، لا سيّما فى أزمان الأمطار ، يمكن أن يكون كبيرا يغلّ دخلا قيّما لهؤلاء الرعاة ، كما يغل لغيرهم . وهم يكسبون من جمع عسل النحل وحطب النار ، ويأتيهم رزق من نقل الأحمال ومن الخدمة فى الجندية .

وعليه ، فرغم أن بعد موقع هؤلاء الناس هو الذى يَسَّرَ بقاء طريقة عيشهم المتوارثة نسبيا ، إلا انه يجب أن لا يبالغ فى عزلتهم عن مؤثرات السوق والحركة التجارية ولا فى انعدام الصلة بينهم وبين الجماعات الساكنة فى الأراضى المنخفضة .

شواوية الظاهرة (١٠)

بينما نجد الشواوية فى الجبال يشكلون نسبة كبيرة من مجموعة السكان نجدهم فى الظاهرة لا يبلغون الا حوالى ٥٪ . وهم ، بسبب قلة عددهم ، أقرب أن يكونوا أتباعا يعيشون فى حمى شيوخ الجماعات الحضرية المحلية . ففى الظاهرة يصبح التمايز بين أساليب عيش الشواوية وأساليب عيش القرية أكبر ، وذلك فى الدرجة الأولى بسبب كبر حجم الحواضر .

ورغم أن مواقع الفرقان فى الظاهرة ، كمواقع الفرقان فى الجبال ، تختار وفق تيسر مـوارد المـاء الا أن توزيعها فى الظاهرة يختلف ، ذلك أنه ليس فى هـذه المنطقة المنخفضـة ماء ظاهر جار بصـورة طبيعية الا بعد الأمطار الغزيرة • وكل موارد المـاء التى يستعملها رعاة الظاهرة مصنوعة ، وبمـا أن الشواوية لم يحفروا لاستعمالهم الخاص الا ٢٠ ٪ منها ، فهى عادة متباعدة قليلا • أما غالبية موارد المـاء فمن صنع أهل القرى إما أفلاجا (١١) واما آبارا ينضح منها بالزاجرة •

وهذه الندرة وهذه الطبيعة فى موارد المـاء جعلتا الشواوية يتركزون فى مساحات صغيرة فى الظاهرة يباعد بينها مسافات واسعة غير مأهولة ، وجعلتهم يقتربون من سكان القرى ، حتى ان ٣٥ ٪ من الفرقان فى الظاهرة يأخذون ماءَهم من أفلاج القرى • وعلى خلاف الجبال ، حيث يستقل تقريبا ٢٠ ٪ من الفرقان بموارد مائهم أو يشـارك أحدها الآخر ، نجد جميع فرقان الظاهرة ، إلا ثلاثة ، يشتركون فى بئرهم مع أسرتين أخريين على الأقـل • ولـذا ، ففرقان الظاهرة ، على وجـه العمـوم ، يميلون الى الاقامة جماعات حول القرى ، فى أعلى الوادى منها على الأغلب • وليس فى المنطقة إلا فرقان قليلة تعيش معزولـة •

ومن العوامل المهمة فى اختيار موقع للفرقان فى الظاهرة وجود ارض مزروعة مهجورة ، فحوالى ٧٨ ٪ منها قائمة على مثل هذه الارض او قريبا منها ، فهى تعطى خير مرعى [١٢] ويغلب ان يكون فيها اشجار ظليلة وآبار فيستغل الشواوية هذه وتلك معا •

ويميل الفرقان فى الظاهرة الى التنقل أكثر من شواوية الجبال ، وينتقل نسبة كبيرة منهم انتقالا شبه منتظم مسافات أبعد [١٣] ولعل السبب وراء هذه التنقلات هو الرغبة فى الانتقال الى قرب قرية زمن خراف التمر ، وهذا يوافق أيضا الانتقال الى قرب مورد ماء ميسور فى وقت تكون الحاجة الى الماء على أشدها • بل ان عددا من الفرقان تنتقل فصليا من عند بئر عميقة الى بئر ضحلة تسهيلا لرفع الماء مدة الصيف ، وسبب آخر للانتقال هو الرغبة فى سكنى موقع نظيف خال من البعر والرماد وسائر الاوساخ والدمن التى تتجمع فى موقع طالت الاقامة فيه •

ومع ان فرقان الظاهرة ، لذلك ، أكثر تنقلا من فرقان الجبال إلا ان هذه التنقلات أيضا ليست من أجل الماشية نفسها • ففى معظم الحالات ترعى الأغنام مرعى متماثلا قبل كل تغيير لموقع الأسرة وبعده • فشواوية الظاهرة كشواوية

الجبال ، ينتقلون طلبا لتيسير مشقات الحياة البشرية لا طلبا لنفع ماشيتهم •

ومعدل ما تملكه الأسرة الشواوية فى الظاهرة يقل عادة عن نصف ما تملكه الأسرة الشواوية فى الجبال • ويكاد ثلثا أسر فرقان الظاهرة أن تملك كل منها أقل من ٢٥ رأسا من الماعز ، ولم نجد الا أسرة واحدة تملك أكثر من ١٠٠ رأس ، وكان ١٧ ٪ فقط يملكون أكثر من ٤٥ رأسا • ويختلف شواوية هذه المنطقة عن شواوية الجبال فى امتلاكهم للأغنام ، إذ أن كثيرا من أسر شواوية الظاهرة يملكون غالبية من الأغنام • ويملك حوالى ١٦ ٪ من الشواوية ماشية من الابقار ، وهذا يدل على صلات وثيقة بالقرى ، ذلك ان البقرة ، إذا اريد لها أن تصح وتسمن ، لا بد لها أن تعلف يوميا بالفصة ، ولابد لأصحابها أن يزوروا قرية كل يوم ليحصلوا على العلف • ويملك فرقان الظاهرة أيضا جمالا أكثر ، رغم أن أعدادها تناقصت أيضا نقصا واضحا •

ورغم أن أساليب الرعى وتدبير القطعان تتباين تباينا كبيرا داخل الظاهرة الا انه من الواضح أن شواوية الأرض المنخفضة هؤلاء ، الذين يملكون من الماشية أقل مما يملك سكان الجبال ،

يخصـــون قطعانهم ، على خلاف ما قد يقع فى الوهم ، بوقت أكثر وجهد أعظم • وسبب ذلك قرب مراعى الظاهرة من مناطق الفلاحة ، فلابد من زيادة العناية لمنع المـــاعز من دخول النخيل والبساتين حيث يمكن أن تحدث تلفا فادحا • ولذا يبقى الأولاد مع القطعان فى الظاهرة ، وقد يحتاج الأمر أن تقيَّد الأنعام التى ألفت الشرود والندود أو أن تودع الأقفاص فى الليل • ثم ان المشاركة فى مياه الآبار تعنى ترتيب الأحـــوال بحيث ترعى ماشية كل أسرة كل يـــوم دون أن تختلط فيما بينها • ويُباعَد بين أوقات ورود المـــاء تحاشيا لاختلاط القطعـــان والفوضى ولكى يتيسر لمنســـوب المـــاء فى الآبار وقت يكفى لارتفاعه مرة ثانية •

وصغر حجم قطعان أهل الظاهرة يعنى أن الدخل منهـــا لا يعدو أن يكون صغيرا • والواقع أن حوالى ١٤٪ من الشواوية الذين جرى سؤالهم فى المنطقة لم يكونوا باعوا شيئا من ماشيتهم على مـــدى سنة أو أكثر ، ولم يبع بعضهم شيئا مـــدة سنوات أربع أو خمس • بل ان بعض الأسر اشترت من الماشية أكثر مما باعت •

ومن يمتلك نخيلا من بين الشواوية القاطنين فى الظاهرة (٦٠٪) أقل ممن يملك النخيل فى الجبال • ومن كان منهم

يملك نخيلا فنخيلهم عادة فى القرى القريبة ، وهم يقومون على ريه وتأبير ثمره بأنفسهم ، ولا يستخدم البيادير منهم إلا الغنى أو الكسول • وهم يملكون من الشجر عادة أكثر مما يملك شواوية الجبال ، ومع ذلك فان معظم أسر الشواوية فى الظاهرة محتاجون الى شراء التمر ، فقطعانهم أصغر ولكنها تطعم باليد كميات أكبر بسبب زيادة نقص المرعى نسبيا • والى جانب ما يشترون من التمر كانت بعض الأسر تتلقى تمرا يكفيها فى بعض الحالات سائر العام • وهذه العطايا من مصدرين : من الشيوخ ، وهى فى العادة وفاء بديون سياسية سابقة ، ومن أهل القرى الذين يقوم الشواوية على وعاية مواشيهم • ومع أن الأجر على رعاية الماشية قد يكون نقدا إلا ان الدفع بعطايا من التمر أشيع وأعم ، وهو مظهر تقليدى من مظاهر التعامل التجارى المحلى • ومع ذلك كله فبعض الأسر فى الظاهرة تنفق على شراء التمر مبالغ أكبر مما يفعل أهل الجبال •

والمألوف أن كثيرا من المال الذى يدفع ثمنا للتمر ولحاجات العيش الأخرى كالشاى والسكر مصدره بيع الماشية ، وما تبقى يقوم بسداده بيع منتجات الألبان والعسل وصيد البر والأجر على نقل سلع التجارة • أما اليوم فقد صار حجم القطعان من الصغر بحيث يجد الشواوية أنفسهم معتمدين

اعتمادا يكاد يكون تاما على مصدر آخر للرزق هـو الدخل النقدى المكتسب من أجـور العمال المهاجرين .

أثر تنقلات العمال المهاجرين على الشواوية

أصبح رحيل الرجال الى مناطق العمران المجاورة بل منطقة العاصمة من السلطنة نفسها (فى مسقط ومطرح) جزءً ثابتاً من حياة الشواوية اليوم بل ومدار حياتهم تقريبا ، لا سيَّما بين شواوية الظاهرة .

وفى أول الأمر لم تؤثر فترات الغياب على تربية الماشية فى صورتهـا التقليدية ، فقـد كان المجتمع الرعوى العمانى ، كمعظم المجتمعات الأخرى ، فيه مقدار من « بطالة » الذكور الفائضين عن حاجة العمل فلم تزد هجرة العمال فى أوائلها على أن امتصت هـذا الفائض . وكان من حسنات ذلك أن صارت اليد العاملة العاطلة عن العمل فيما سبق مصدرا للدخل النقدى بدل أن تعيش عالة على الموارد المحلية . ولكن مع مضى الزمن صـار للأجر النقدى المكتسب من الاغراء والجاذبية ما دفـع أعدادا متزايدة من الرجال الى الرحيل تاركين للنسـاء العمل الذى كانوا يقومون به عادة .

وقـــد ارتفع معدّل الغياب بين الســـكان الشواوية اليوم حتى بلغ ١٧ ٪ منهم [١٤] • ولا تعـُد هذه نسبة عالية فريدة بين جماعة تشكل مصـــدرا للعمال المهاجرين [١٥] •ولكن هـــذا التحول فى اليد العاملة عن الأعمال المعهودة تتضح دلالته إذا أخذنا بعين الاعتبار أعمار المتغيبين وأدركنا أن معظمهم مـــن الذكور • فقـــد كان ٧٠ ٪ تقريبا تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ٤٠ متغيبين بين السكان الشواوية الذين اخترناهم نماذج للدراسة • وقد كانت نسبة الرجال الغائبين شيئا من هـــذا القبيل بين كل الجماعات التى حصرناها ، وتدل بينات البحث الميدانى أن عدد الرجـــال المتغيبين من أسر شـــواوية الجبال ، حتى فى أقصى الأماكن ، لا يقل إلا شيئاً قليلا عن المتغيبين من بين أسر الظاهرة القريبة من الطرق الرئيسية •

وكثير من الفرقان لا يكون بين قاطنيها ذكر بالغ واحـــد فينتقل دور رب الأسرة إما إلى صبى يافع أو الى الزوجـــة • وعندما يعود المهاجرون مؤقتا فانما يعودون لفترات استجمام وبذلك لا يسهمون الا قليلا فى الاقتصاد التقليدى ، ولذا فان انقطاع هذه الجماعة التى هى فى أنشط العمر عن حياة الرعى قد ألحق بالمجتمع خســـارة شديدة وانتشر التفكك فى مجتمع الرعى وتربية الماشية ، لا سيّما فى الظاهرة ، رغم تزايد نشاط الدور

الذى تقـــوم به المرأة • فقـــد خربت الآبار ونقص مســـتوى العناية بالابل والماعز (فالنســـاء مثلا ، لم يأخذن على أنفسهن أن يبحثن عن القطعان الضالة أو الشـــاردة) وغاب الرجال عن تنظيم تنقلات الفريق وتعهده •

وفى الوقت نفسه شهدت عمان ارتفاعا بالغا فى ثمن اللحم مما دفع كثيرا من الشواوية (هم كذلك من أهل الظاهرة) أن يفرطوا فى البيع من قطعانهم • وقد أدى هـــذا الأمر ، مع هبوط مستوى تربية الماشية ، الى نقص واضح فى أعدادها • ولمـــا صار العمال المهاجرون يضيقون اليوم حتى بالاحتفاظ بقطيع صغير فان أعداد الماشية لم ترجع قط الى ما كانت عليه • وكانت النتيجة أن كثيرا من شواوية الظاهرة لا يكادون يستفيدون من قطعانهم المتناقصـــة إلا بمقادير صغيرة من اللبن ولحم الذبائح التى تنحر فى الأعياد ، فهم يستهلكون من اللحم واللبن المعلبين أكثر مما يستمدون من ماشيتهم • وبذلك كفّوا فى الحقيقة عن أن يكونوا أهل رعى •

ولكنهم مع ذلك يحتفظون بطراز حياة الشواوية فينقلون منازلهم من موقع الى موقع مع الفصول وبلا انتظام معا ويعيشون فى مساكن متفرقة غير دائمـــة • وواضح أن هذا مغالطة لأحوال

الزمن من حيث أن العلة الموجبة لطراز الحياة المتنقلة — وهى الماشية — لم تعد تسد إلا قدراً ضئيلاً فى اقتصاد حياة الشواوية فى مناطق كبيرة من ظاهرة عمان • لقد بينّا أن الناس أيضا يستمدون بعض النفع من تنقلات الفريق ، ولكن ليس واضحا ما الذى يُبْقى هذه الأسر فى مواقعها المعزولة بعيدة عن سكان القرى ، ولعل خير ما يفسر ذلك هو التعلق بالمعهود الموروث ، بشىء من مظاهر « الذهنية الشواوية » ، قياسا على ما يسميه كثير من الكتاب « الذهنية » أو « النفسية البدوية » ، ولعله يكون أقرب للواقع أن نفسّره بمقدار من النفور المتبادل بين أهل القرى (الحضر) والشواوية •

وهذا التحوّل التام فى اقتصاد شواوية الظاهرة من رعى الى اقتصاد قائم على دخل نقدى ليس ، فى حد ذاته ، أمرا عظيم الخطر فى الوقت الحاضر • فكثير من الرعاة هؤلاء لم يكونوا قط يملكون قطعانا تبلغ ، مثلا ، أعداد قطعان أهل الجبال ، ولذا فان الخسارة فى مصدر اللحم قد يعوضها اشتغال رجال الشواوية بالعمل فى مناطق الحضر •

ولكن الخطر أن يقع مثل هذا الأمر لشواوية الجبال ويزيل مظاهر حياتهم • والواقع ان هناك دلائل على أن هذا الأمر قد بدا • واذا حدث فى الجبال مثل ما حدث فى الظاهرة من

تناقص القطعان فان الأثر على عمان يكـــون عندها أخطر وأعظم ضررا من نواح كثيرة •

والأهمية الخاصـــة للرعـــاة فى جبـــال عمـــان الشمالية اليوم تكمن فى أنهم وحدهم ، دون سائر جماعات الرعاة ، بقوا يملكون فائضـــا من حيوانات الذبح للبيع فى السوق (١٦) • فالدروع ، الذين كانوا يمونون القرى الكبيرة فى الظاهرة بلحم الذبائح من الابل والأغنام والماعز ، يملكون اليوم من الماشية أقل بكثير مما كانوا يملكون فى المـــاضى ، وقد بيّنا كيف أن أعدادا كبيرة من شواوية الظاهرة لم يعودوا فى الواقع رُعاة • وقد كانت النتيجة أن الحكومة صارت تستورد كميات كبيرة من اللحم ، ماشية حية ولحوما معلبة • وضياع مورد لحم الماعز ، ومورد لحم الخروف والضأن الى حـــد أقل ، من شواوية الجبال سيرفع أسعار اللحوم فوق ما ارتفعت بعقبه زيادة فى استيراد اللحـــوم •

والدعوة الى الابقاء على مصـــدر اللحوم من جبال عمان لا يعنى أن نسعى لبقـــاء طراز حياة شواوية على ما هى عليه ، وذلك قطعا لا يعنى أن حياة الرعى هذه ، التى كثيرا ما أضفىَ عليها مسحة رومانتيكية ، ينبغى أن تتحجر ويحافظ عليها بسبب

قيمة ذاتية روحية أو تاريخية تتمتع بها • ولكننا نرى أنه ينبغى أن يقـوم فى الجبال اقتصاد تربية ماشية سليم يضمن استمرار مورد اللحوم فى المستقبل دون أن يكون فيه إفساد للبيئة ، ويرضى به رعاة الماشية لا لما يأتيهم به من دخل واقعى بل أيضا لأنه يحوى نمطا جذاباً من الحياة (عند العمانيين) له ، فى الوقت نفسه ، صلة بأسباب العيش الحديثة •

ولعل الوقت الباقى للنظر فى مثل هذه الخطة وتنفيذها قصير • فقد نبهنا الى أن معدلات الغياب بين الرجال من أهل الجبال بدأت تقترب من المعدلات السائدة بين شواوية الظاهرة • وقياسا على تفكك مجتمع الرعى فى الظاهرة ، فان هذا المستوى من الغياب كانت نتيجته أن أعداد القطعان التى تملكها أسرة الغائبين تتناقص سريعا • ولم تبق رعاية الماشية محور الحياة فى الجبال حتى اليوم إلا لقصر الوقت الذى مضى على تحركات العمال وهجرتهم •

ولا يزال شواوية الجبال يعتبرون الدخل النقدى المتحصل من هجرة اليد العاملة اضافة (لها قيمتها على كل حال) الى موارد رزقهم المعهودة المتوارثة • فرؤوس الأسر مثلا يرسلون أبناءهم للعمل بهدف رفع قدرتهم على زيادة مؤونتهم من

التمر لماشيتهم لتبقى صحيحة سمينة • وفى أوقات الجفاف يزداد السعى لكسب النقود ولكن عندما تكون المراعى وفيرة يقضى العمال المهاجرون وقتا أكثر فى ديارهم — فدخلهم يُستعمَل لحماية القطعان وتحسين أحوالهم •

ولكن مع مرور الوقت فإن الدخل النقدى قد يستعمل لسداد حاجات الأسرة كلها مباشرة ويصبح الماعز أمرا على هامش معاش الفريق واقتصاده • ويزداد احتمال وقوع هذا الأمر كلما ضعفت هيبة أرباب الأسر المتعلقين بالمعهود المتوارث مع تقدمهم فى السن أو بوفاتهم وتحول أولادهم ، ممن تمتعوا طويلا بدخل نقدى ، عن الاهتمام بقطعان الأسرة يوما بعد يوم •

ولا يتوقف التناقص السريع فى أعداد الماعز فى الجبال على تغيير فى الظروف ، فالأحوال التى سببت النقص فى أعداد الماشية بين جماعات الرعى الأخرى ، بما فى ذلك بدو الربع الخالى ، قائمة الآن ، وإنما تحتاج الى تغيير يسير فى موقف الناس لا شك أن الزمن كفيل بأن يحدثه •

وقد قامت دلائل كثيرة على أن نظام تربية الماشية السائد فى الجبال قد دبّ اليه الفساد • وقد نبّهنا أن الأسباب وراء

تعيير مواقع الفرقان فى الجبال مع الفصول أصبحت ، كما فى الظاهرة أيضـــا ، متصلة بما فيه نفع للبشر بدل نفع القطعان • زد على ذلك أن الحالات التى يكون فيها انتقال الفريق مضرا فعلا بالماشية بدأت تشيع وتزداد • فقد زرنا عدداً من الفرقان نقلت مواقعهـــا الى جانب الطرق تسهيلا لتنقلات العمـــال المهاجرين (١٧) ، وقد قاموا بهذه التنقلات رغم إقرارهم أن المراعى حـــول المكان الجديد كانت أقل جـــودة من المراعى التى كانوا يرعون فيها من قبل • ومثل هذه التنقلات توضح تبدّل الأولويات عند شواوية الجبال وتناقص اهتمامهم بخير قطعانهم • وقد تحدث أحيانا حالات من هـــذا القبيل مثل انتقال الفريق من الجبال الى الأرض الواطئة دفعـــة واحـــدة وبيع معظم القطيع • ومثل هـــذا الانتقال قـــد يكـــون بداية تدفق عظيم لشواوية الجبال ما لم تُتَّخَذ الخطوات لتحسين حياة رعاية المـــاشية الجبلية عند العمانيين •

رغم أن تناقص السكان فى المناطق الريفية المرتفعة ، يعتبر تطور طبيعى فى المناطق النامية — مثل بريطانيا زمن الرومان ومثل فرنســـا وسويسرا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، إلا أن تفريغ الجبال من السكان القائمين برعاية الماشية قـــد يكون له عواقب غير محمودة تتراوح بين تزايد سريع جـــدا فى عدد سكان المدن وبين اضطراب حبل الموارد التى تمون السوق

بالماشية • إننا ندرك أن سلطات الدولة لا بدّ لها أن تولى العناية لجهود التنمية فى المناطق التى يكون النشاط الاقتصادى فيها مركزا وأقل بعثرة • ولكن إذا وجهت بعض التدابير الى المناطق الجبلية القليلة السكان فلا شك أنها ستترك مجالا لمعدّل معقول من التغيير والتكيف بين الشواوية ليلائم أحوال العيش الجديدة فى عمـــان •

وخير مبادرة فى هـــذا المجال هى أن يوجه الاهتمام الى توفير تسهيلات بيطرية متنقلة خدمة لأصحاب القطعان • وينبغى أن تقترن بخدمات طبية يمكن أيضا أن تحمل الى الفرقان • ثم أن الاعتناء بصحة الحيوان والانســـان فى الجبال ، بغض النظر عن قيمته الأساسية ، سيعود بفائدة عظمى على العلاقات العامة بحيث أن أية تدابير جديدة للتنمية فى المستقبل ستلقى قبولا أكثر عند الشواوية حتى ولو كانت أقل استمالة لهم • واذا تحقق الحافز سريعا للقيام بدراســـة محددة (لكن على مقياس صغير) لأنواع الماشية ومحطات التســـويق ووسائل تحقيق الكســـب لأصحاب القطعان فان ذلك سيؤدى الى تدابير غايتها توفير الدعم لنظام تربيـــة الماشية الحاليـــة والحيلولة دون ازدياد اضمحلالها ثم بعد ذلك تحسين حالة شواوية الجبال وفى الوقت نفسه ضمان موارد من اللحم الجيّد النوع •

(١) معلومات قائمـــة على الاحصاء العام ومساحة الحياة البيتية فى مشروع البحث العمانى الذى قامت به جامعة درهام • فقد تم فى ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ تعداد حـــوالى ١٧٫٠٠٠ شخص يعيشون فى قرى وفى مساكن مفرقة • والنتائج الكاملة لتحليل هـــذه المعلومات ستظهر فى التقارير القادمـــة لمشروع درهام للبحث العمانى •

(٢) مبنى على حسابات تتعلق بسكان رؤوس الينابيع فى وديان بنى عمر والضلة والحواسنة والوادى العريض والوادى الكبير •

(٣) هذه التنقلات موضحة بخرائط فى تقارير درهام وفى دراســـة عن تحركات السكان ستنشر فى المستقبل •

(٤) قد تقع مثل هذه النقلة بعد موت طفل أو بعد فترة يمرض فيها واحد من سكان الفريق •

(٥) أنظر مثلا للمقارنة :

Johnson, D. L., 1969. The Nature of Nomadism,

Chicago : and Barth F., 1961, Nomads of South Persia : the Basseri Tribe of the Khamseh Confederacy, London.

(٦) هذه الأرقام تعتمد على عمل ميدانى جرى فى فترة جفاف خطير فى رؤوس الينابيع فى هذه الأودية • أما الأرقام المستمدة من عمل ميدانى زمن فترة السيول فقد تأتى على خلاف ذلك •

(٧) قد يتأثر معدل الهلاك والخسارة هذا تأثرا جليا بأحوال الجفاف النسبى •

(٨) النخيل الذى فى الحيل ، حيث لا يقف على شكل بساتين مكتظة ، يتأثر بالرياح والشمس أكثر مما يتأثر النخيل فى القرى الكبيرة حيث يحمى الشجر بعضه بعضا •

(٩) نكرر هنا أيضا أنه لما كانت المعلومات جمعت فى فترة جفاف فقد تكون هذه الارقام أعلى منها فى سنة عادية • لكنها قيّمة على كل حال من حيث انها تدل على المستوى الذى قد تبلغه المشتريات •

(١٠) رغم ان تحديد الظاهرة يختلف إلا أننا هنا نقصد بها الأجزاء الوسطى من الوادى العريض (الجفرة) والوادى الكبير ووادى الهجر ووادى العين •

وكثير مما يقال فى هـذا القسم عن الظاهرة ينطبق علـى شواوية الأرض الواطئة الذين يعيشـون بين الجبال والبحر • أما شواوية المناطق الأخرى الذين شملتهم منطقة العمل الميدانى لمشروع عمان ــ جامعة درهام فيرد وصفهم فى تقارير مشروع البحث العمانى لجامعة درهام التى ينتظر نشرها قريبا •

(١١) أنظر :

Twistleton - Wykeham - Fiennes, R., 1970 «Sweet Water for the Hottest Land», Geographical Magazine, 42, 12.

(١٢) هذه المراعى من أجود ما يكون • فماء المطر يتجمع بفعل سدود الرى القديمة والتربة خصبة لأنها سبق أن فلحت وسمّدت •

(١٣) أنظر تقارير مشروع البحث العمانى لجامعة درهام التى ستنشر قريبـا •

(١٤) كالسـابق •

(١٥) فمثلا ١٧ ٪ من الباسوتو يتغيبون بسبب الهجرة للعمل فى جنوب افريقيا •

(١٦) ٧٠ — ٨٠ ٪ من الأنعام الصغـيرة التى تباع فى الأســواق موردها من الشواوية .

(١٧) هذه الأسر تستفيد أيضا فوائد أخرى من سكناها قرب الطريق ، ولكن تيسير السفر فى ذهاب العمال المهاجرين وايابهم كان أهم سبب ذكروه تعليلا لنقلات الفرقان هذه .

الرقم العام : ٧٥٦
الرقم الخاص :

رقم الايداع ١٨٨٧ لسنة ١٩٨٣

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي
المكتبة
الرقم العام : ٧٥٦
الرقم الخاص :

مطابع سجل العرب